

اِقْتِصَادِنَا

محمد باقر الصدر

اقتصادنا

دراسة موضوعية تتناول بالنقد والبحث المذاهب الاقتصادية
للماركسية والرأسمالية والإسلام في أسسها الفكرية وتفاصيلها

دار المعارف للطباعة
بيروت - لبنان

الطبعة العشرون

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م



المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية ابو علي طعام

ص - ب ٨٦٠١ - ١١

تلفون ٨٣٦٦٩٦ - ٨٣٧٨٦٨

تلکس تعارف ٢٣٦٤٤ - LE

كلمة الدار

الإسلام العظيم، لا يقتصر على العبادة في المسجد، والصيام لدى حلول شهر رمضان ومزاولة النسك ايام الحج ودفع ضريبة يسيرة في العام باسم الخمس والزكاة، وتحسين الاخلاق وتهذيب السلوك وروحانية القلب كما يحلو للمستعمرين في الشرق والغرب تفسير الإسلام بذلك والتأكيد عليه حتى يسهل على الاستعمار تفريغ المجتمع الإسلامي من محتوياته ومعطياته وتغيير مساره الصحيح الباعث على استقلال المجتمع وكرامة الإنسان ورضاء العيش وسعادة كل واحد من الأفراد ، لنهب الثروات الطبيعية وتسيير البلاد حسب ما يروق لهم ووضع الشعوب الإسلامية في مستوى من التخلف والتبعية والشعور بالنقص تجاه الدول العملاقة المتطورة من الشرقية والغربية .

بل هو نظام شامل ومتكامل يعالج جميع شؤون الإنسان ويتدخل في كافة المجالات التي هي ضرورية للحياة ويضع الحلول المناسبة لما يعرقل مسيرة المجتمع نحو الكرامة والسعادة والحرية .

وفي طليعة المسائل الحياتية الباعثة على الرفاه والرخاء القضايا الاقتصادية التي تعتبر عصب الحياة في المجتمع الإنساني المعاصر .

وقد تحدث الإسلام عن الثروات الطبيعية وتوزيعها قبل الإنتاج وبعده

وكيفية الحؤول دون التضخم المالي والأساليب المتبعة للقضاء على الفقر والبؤس .

وكان المفكر الاسلامي السيد محمد باقر الصدر دام ظله قد الف في بداية العقد السادس من هذا القرن بحثاً عميقاً ومسهباً عن الإقتصاد الإسلامي أسماه «اقتصادنا» قارن فيه الإقتصاد الاسلامي مع الخطوط العريضة للإقتصاد الرأسمالي الحاكم على رقعة واسعة من العالم ومع نظام الإقتصاد الماركسي المتحكم على مساحة كبيرة أخرى من المجتمعات البشرية وأثبت للجميع بان مبادئ الإقتصاد الإسلامي اجدى للإنسان من اي نظام آخر وأجدر على قيادة المجتمع نحو الرفاه والرخاء والسعادة حيث تقضي على البؤس وتوفر العمل وتمنع الإحتكار والتنافس على العرض والطلب وتنمي المواهب الشخصية للأفراد .

وعندما طبع هذا الكتاب طبعته الأولى وانتشر في الأسواق تهافت عليه المثقفون واستقبلوه بعقولهم ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح الكتاب مرجعاً للدراسات الجامعية العليا في حقلي الإقتصاد والعلوم الاسلامية .

ثم توالى طبعات هذا الكتاب في شتى البلاد العربية وترجمت الى عدة لغات ولا يزال العالم الإسلامي يرى منشوده في معرفة وجه الإقتصاد الإسلامي في هذا الكتاب .

ودارنا ترفع الى سماحة المؤلف الكبير السيد محمد باقر الصدر أسمى آيات الثناء والتقدير وتسأل من الله العلي القدير ان يحفظه ويسدد خطاه لقيادة العالم الإسلامي .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرني ان أقدم للطبعة الثانية لكتاب اقتصادنا وقد ازدادت إيماناً واقتناعاً بان الأمة قد بدأت فعلاً تنفتح على رسالتها الحقيقية التي يمثلها الإسلام وتدرك بالرغم من الوان التضليل الاستعماري ان الإسلام هو طريق الخلاص وان النظام الإسلامي هو الإطار الطبيعي الذي يجب ان تحقق حياتها وتفجر طاقاتها ضمنه وتنشيء كيانها على أساسه .

وقد كان بودي ان تتاح لي فرصة للتوسع في بعض مواضيع الكتاب وتبسيط المزيد من الأضواء على عدد من النقاط التي تناولها ولكني اذ لا اجد الآن مجالاً للحديث عن بحوث الكتاب فلن أدع هذه المناسبة دون كلمة عن موضوع الكتاب ذاته ، وصلة هذا الموضوع الخطير بحياة الأمة ومشاكلها وأهميتها المتنامية على مر الزمن على الصعيد الإسلامي والصعيد البشري على السواء .

فالأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها الشامل ضد تخلفها وانهارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان ارسخ واقتصاد أغنى وأرفه سوف لن تجد امامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب الا طريقاً واحداً للتحرك وهو التحرك في الخط الإسلامي ولن تجد اطاراً تضع ضمنه حلولها لمشاكل التخلف الاقتصادي سوى إطار النظام الاقتصادي في الاسلام .

والإنسانية على الصعيد البشري وهي تقاسي أشد الوان القلق والتذبذب

بين تيارين عالميين ملغمين بقنابل الذرة والصواريخ ووسائل الدمار لن تجد لها خلاصاً الا على الباب الوحيد الذي بقي مفتوحاً من أبواب السماء وهو الإسلام .

ولنأخذ في هذه المقدمة الصعيد الإسلامي بالحديث .

□ _____ على الصعيد الإسلامي :

حينما أخذ العالم الإسلامي يفتح على حياة الإنسان الأوروبي ويدعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسائله الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن اطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم ، الذي درج عليه الانسان الأوروبي حين قسم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد وقدرته المنتجة الى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة او متخلفة اقتصادياً وكانت بلاد العالم الإسلامي كلها من القسم الثاني الذي كان يجب عليه في منطق الإنسان الأوروبي ان يعترف بإمامة البلاد الراقية ويفسح المجال لها لكي تنفث روحها فيه وتخطط له طريق الارتفاع .

وهكذا دشن العالم الإسلامي حياته مع الحضارة الغربية بوصفه مجموعة من البلاد الفقيرة اقتصادياً ووعى مشكلته على أساس أنها هي التخلف الاقتصادي عن مستوى البلاد المتقدمة الذي أتاح لها تقدمها الاقتصادي زعامة العالم ولقنته تلك البلاد المتقدمة ان الأسلوب الوحيد للتغلب على هذه المشكلة والالتحاق بركب البلاد المتقدمة هو اتخاذ حياة الإنسان الأوروبي تجربة رائدة وقائدة وترسم خطوات هذه التجربة لبناء اقتصاد كامل شامل قادر على الارتفاع بالبلاد الاسلامية المتخلفة الى مستوى الشعوب الأوروبية الحديثة .

وقد عبرت التبعية في العالم الاسلامي لتجربة الإنسان الأوروبي الرائد للحضارة الحديثة عن نفسها بأشكال ثلاثة مترتبة زمنياً ولا تزال هذه الاشكال الثلاثة متعاصرة في أجزاء مختلفة من العالم الاسلامي .

الأول : التبعية السياسية التي تمثلت في ممارسة الشعوب الأوروبية الرأقية
اقتصادياً حكم الشعوب المتخلفة بصورة مباشرة .

الثاني : التبعية الاقتصادية التي رافقت قيام كيانات حكومية مستقلة
من الناحية السياسية في البلاد المتخلفة وعبرت عن نفسها في فسح المجال
للاقتصاد الأوروبي لكي يلعب على مسرح تلك البلاد بأشكال مختلفة
ويستثمر مواردها الأولية ويملاً فراغاتها برؤوس أموال أجنبية ويحتكر عدداً من
مرافق الحياة الاقتصادية فيها بحجة تمرين أبناء البلاد المتخلفين على تحمل
أعباء التطوير الاقتصادي لبلادهم .

الثالث : التبعية في المنهج التي مارستها تجارب عديدة في داخل العالم
الاسلامي حاولت ان تستقل سياسياً وتتخلص من سيطرة الاقتصاد الأوروبي
اقتصادياً وأخذت تفكر في الاعتماد على قدرتها الذاتية في تطوير اقتصادها
والتغلب على تخلفها غير انها لم تستطع ان تخرج في فهمها لطبيعة المشكلة التي
يحسدها تخلفها الاقتصادي عن اطار الفهم الأوروبي لها فوجدت نفسها مدعوة
لاختيار نفس المنهج الذي سلكه الانسان الأوروبي في بنائه الشامخ لاقتصاده
الحديث .

وبالرغم من اختلافات نظرية كبيرة نشأت بين تلك التجارب خلال رسم
المنهج وتطبيقه فان هذه الاختلافات لم تكن دائماً الا اختلافات حول اختيار
الشكل العام للمنهج من بين الأشكال المتعددة التي اتخذها المنهج في تجربة
الانسان الأوروبي الحديث فاختيار المنهج الذي سلكته التجربة الرائدة للانسان
الأوروبي الحديث كان موضع وفاق لأنه ضريبة الأمانة الفكرية للحضارة
الغربية وانما الخلاف في تحديد شكل واحد من اشكالها .

وتواجه التجارب الحديثة للبناء الاقتصادي في العالم الاسلامي عادة
شكولين لتجربة البناء الاقتصادي في الحضارة الغربية الحديثة وهما الاقتصاد
الحر القائم على اساس رأسمالي والاقتصاد المخطط القائم على اساس اشتراكي

فإن كلاً من هذين الشكلين قد عاش تجربة ضخمة في بناء الاقتصاد

الأوروبي الحديث والصيغة التي طرحت للبحث على مستوى التطبيق في العالم الإسلامي على الأكثر: ما هو الشكل الأجدر بالاتباع من هذين الشكلين وأقدر على إنجاح كفاح الأمة ضد تخلفها الاقتصادي وبناء اقتصاد رفيع على مستوى العصر؟

وكان الاتجاه الأقدم حدوثاً في العالم الإسلامي يميل الى اختيار الشكل الأول للتنمية وبناء الاقتصاد الداخلي للبلاد اي الاقتصاد الحر القائم على اساس رأسمالي نتيجة لأن المحور الرأسمالي للاقتصاد الأوروبي كان أسرع المحورين للنمو الى العالم الإسلامي واستقطابه كمراكز نفوذ .

وعبر صراع الأمة سياسياً مع الاستعمار ومحاولتها التحرر من نفوذ المحور الرأسمالي وجدت بعض التجارب الحاكمة أن النقيض الأوروبي للمحور الرأسمالي هو المحور الاشتراكي فنشأ اتجاه آخر يميل الى اختيار الشكل الثاني للتنمية اي التخطيط القائم على أساس اشتراكي نتيجة للتوفيق بين الايمان بالانسان الأوروبي كرائد للبلاد المتخلفة وواقع الصراع مع الكيان السياسي للرأسمالية فما دامت تبعية البلاد المتخلفة للبلاد الراقية اقتصادياً تفرض عليها الايمان بالتجربة الأوروبية كرائد وما دام الجناح الرأسمالي من هذه التجربة يصطدم مع عواطف المعركة ضد الواقع الاستعماري المعاش فليؤخذ بالتخطيط الاشتراكي بوصفه الشكل الآخر للتجربة الرائدة .

ولكل من الاتجاهين أدلته التي يبرر بها وجهة نظره. فالإتجاه الأول يبرر عادة التقدم العظيم الذي حصلت عليه الدول الأوروبية الرأسمالية وما أحرزته من مستويات في الانتاج والتصنيع نتيجة لانتهاج الاقتصاد الحر كأسلوب للتنمية ويضيف الى ذلك ان بإمكان البلاد المتخلفة اذا انتهجت نفس الأسلوب وعاشت نفس التجربة ان تختصر الطريق وتقفز في زمن أقصر الى المستوى المطلوب من التنمية الاقتصادية لأنها سوف تستفيد من خبرات التجربة الرأسمالية للانسان الأوروبي وتستخدم كل القدرات العلمية الناجزة التي كلفت الانسان الأوروبي مئات السنين حتى ظفر بها .

والإتجاه الثاني يفسر اختياره للاقتصاد المخطط على أساس اشتراكي بدلاً

عن الاقتصاد الحر بأن الاقتصاد الحر ان كان قد استطاع ان يحقق للدول الأوروبية الرائدة في العالم الرأسمالي مكاسب كبيرة وتقدماً مستمراً في التكنيك والانتاج ونموً متزايداً للثروة الداخلية للبلاد فليس بالامكان ان يؤدي دوراً مماثلاً للبلاد المتخلفة اليوم لأن البلاد المتخلفة تواجه اليوم تحدياً اقتصادياً هائلاً يمثلته التقدم العظيم الذي أحرزته دول الغرب وتقابل إمكانات هائلة منافسة لا حد لها على الصعيد الاقتصادي بينما لم تكن الدول المتقدمة فعلاً تواجه هذا التحدي الهائل وتقابل هذه الإمكانيات المنافسة حين بدأت عملية التنمية الاقتصادية وشنت حربها ضد أوضاع التخلف الاقتصادي . واتخذت من الاقتصاد الحر منهجاً وأسلوباً فلا بد للبلاد المتخلفة اليوم من تعبئة كل القوى والطاقات لعملية التنمية الاقتصادية بصورة سريعة ومنظمة في نفس الوقت وذلك عن طريق الإقتصاد المخطط القائم على أساس اشتراكي .

ويعتمد كل من الاتجاهين في تفسيره لما يبنى به من فشل في مجال التطبيق على الظروف المصطنعة التي يخلقها المستعمرون في المنطقة لكي يعرقلوا فيها عمليات النمو ولا يسمح لنفسه على أساس ذلك ان يفكر حين الاحساس بالفشل في اي منهج بديل للشكلين التقليديين اللذين اتخذتهما التجربة الأوروبية الحديثة في الغرب والشرق بالرغم من وجود بديل جاهز لا يزال يعيش نظرياً وعقائدياً في حياة الأمة وان كان منعزلاً عن مجال التطبيق وهو المنهج الإسلامي والنظام الاقتصادي في الاسلام .

وانا لا اريد هنا أن أقارن بين الاقتصاد الاسلامي والاقتصاديين الرأسمالي والاشتراكي من وجهة نظر اقتصادية مذهبية فان هذا ما اتركه للكتاب نفسه . فقد قام كتاب اقتصادنا، بدراسة مقارنة بهذا الصدد وانما أريد ان أقارن بين الاقتصاد الأوروبي بكلا جناحيه الرأسمالي والاشتراكي والاقتصاد الإسلامي من ناحية قدرة كل منهما على المساهمة في معركة العالم الاسلامي ضد التخلف الاقتصادي ومدى قابلية كل واحد من هذه المناهج ليكون إطاراً لعملية التنمية الاقتصادية .

ونحن حين نخرج من نطاق المقارنة بين هذه المناهج الاقتصادية في

محتواها الفكري والمذهبي الى المقارنة بينها في قابليتها التطبيقية لإعطاء اطار للتنمية الاقتصادية يجب ان لا نقيم مقارنتنا على اساس المعطيات النظرية لكل واحد من تلك المناهج فحسب بل لا بد ان نلاحظ بدقة الظروف الموضوعية للأمة وتركيبها النفسي والتاريخي لأن الأمة هي مجال التطبيق لتلك المناهج فمن الضروري ان يدرس المجال المفروض للتطبيق وخصائصه وشروطه بعناية ليلاحظ ما يقدر لكل منهج من فاعلية لدى التطبيق . كما ان فاعلية الاقتصاد الحر الرأسمالي او التخطيط الاشتراكي في تجربة الإنسان الأوروبي لا تعني حتماً ان هذه الفاعلية نتيجة للمنهج الاقتصادي فحسب لكي تتوفر متى اتبع نفس المنهج بل قد تكون الفاعلية ناتجة عن المنهج باعتباره جزءاً من كل مترابط وحلقة من تاريخ فاذا عزل المنهج عن اطاره وتاريخه لم تكن له تلك الفاعلية ولا تلك الثمار .

ومن خلال دراسة مقارنة للمذاهب الاقتصادية المتعددة وإمكانات نجاحها عملياً في العالم الاسلامي يجب ابراز حقيقة أساسية يرتبط بها تقدير الموقف الى درجة كبيرة وهي ان حاجة التنمية الاقتصادية الى منهج اقتصادي ليست مجرد حاجة الى اطار من اطر التنظيم الاجتماعي تتبناه الدولة فحسب لكي يمكن ان توضع التنمية ضمن هذا الاطار او ذاك بمجرد تبني الدولة له والتزامها به بل لا يمكن للتنمية الاقتصادية والمعركة ضد التخلف ان تؤدي دورها المطلوب الا اذا اكتسبت اطاراً يستطيع ان يدمج الأمة ضمنه وقامت على أساس يتفاعل معها . فحركة الأمة كلها شرط اساسي لإنجاح اي تنمية واي معركة شاملة ضد التخلف لأن حركتها تعبير عن نموها ونمو إرادتها وانطلاق مواهبها الداخلية وحيث لا تنمو الأمة لا يمكن ان تمارس عملية تنمية فالتنمية للثروة الخارجية والنمو الداخلي للأمة يجب ان يسيرا في خط واحد .

وتجربة الانسان الأوروبي الحديث هي بالذات تعبير تاريخي واضح عن هذه الحقيقة . فإن مناهج الاقتصاد الأوروبي كإطارات لعملية التنمية لم تسجل نجاحها الباهر على المستوى المادي في تاريخ أوروبا الحديث إلا بسبب تفاعل الشعوب الأوروبية مع تلك المناهج وحركتها في كل حقول الحياة وفقاً لاتجاه

تلك المناهج ومتطلباتها واستعدادها النفسي المتناهي خلال تاريخ طويل لهذا الاندماج والتفاعل .

فحين نريد ان نختار منهجاً او إطاراً عاماً للتنمية الاقتصادية داخل العالم الاسلامي يجب ان نأخذ هذه الحقيقة أساساً ونفتش في ضوئها عن مركب حضاري قادر على تحريك الأمة وتعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف ولا بد حينئذ ان ندخل في هذا الحساب مشاعر الأمة ونفسياتها وتاريخها وتعقيداتها المختلفة .

ومن الخطأ ما يرتكبه كثير من الاقتصاديين الذين يدرسون اقتصاد البلاد المتخلفة وينقلون اليها المناهج الأوروبية للتنمية دون أن يأخذوا بعين الاعتبار درجة إمكان تفاعل شعوب تلك البلاد مع هذه المناهج ومدى قدرة هذه المناهج المنقولة على الالتحام مع الأمة .

فهناك مثلاً الشعور النفسي الخاص الذي تعيشه الأمة في العالم الإسلامي تجاه الاستعمار الذي يتسم بالشك والاثام والخوف نتيجة لتاريخ مرير طويل من الاستغلال والصراع ، فإن هذا الشعور خلق نوعاً من الإنكماش لدى الأمة عن المعطيات التنظيمية للإنسان الأوروبي وشيئاً من القلق تجاه الأنظمة المستمدة من الأوضاع الاجتماعية في بلاد المستعمرين وحساسية شديدة ضدها وهذه الحساسية تجعل تلك الأنظمة حتى لو كانت صالحة ومستقلة عن الإستعمار من الناحية السياسية غير قادرة على تفجير طاقات الأمة وقيادتها في معركة البناء فلا بد للأمة اذن بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به ان تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت الى بلاد المستعمرين بنسب .

وهذه الحقيقة الواضحة هي التي جعلت عدداً من التكتلات السياسية في العالم الإسلامي تفكر في اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة وأساساً للتنظيم الاجتماعي حرصاً منها على تقديم شعارات منفصلة عن الكيان الفكري للاستعمار انفصلاً كاملاً غير ان القومية ليست الا رابطة تاريخية ولغوية

وليست فلسفة ذات مباديء ولا عقيدة ذات أسس بل حيادية بطبيعتها تجاه مختلف الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والعقائدية والدينية ، وهي لذلك بحاجة الى الأخذ بوجهة نظر معينة تجاه الكون والحياة وفلسفة خاصة تصوغ على أساسها معالم حضارتها ونهضتها وتنظيمها الاجتماعي .

وبدوا ان كثيراً من الحركات القومية أحست بذلك أيضاً وأدركت ان القومية كمادة خام بحاجة الى الأخذ بفلسفة اجتماعية ونظام اجتماعي معين وحاولت ان توفق بين ذلك وبين أصالة الشعار الذي ترفعه وانفصاله عن الانسان الأوروبي فنادت بالاشتراكية العربية . نادت بالاشتراكية لأنها أدركت ان القومية وحدها لا تكفي بل هي بحاجة الى نظام ونادت بها في اطار عربي تفادياً لحساسية الأمة ضد أي شعار او فلسفة مرتبطتين بعالم المستعمرين فحاولت عن طريق توصيف الاشتراكية بالعربية تغطية الواقع الأجنبي المتمثل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة لأن هذا الإطار القلق ليس الا مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الأجنبي الذي تمثله الاشتراكية والا فأي دور يلعبه هذا الإطار في مجال التنظيم الاشتراكي وأي تطوير للعامل العربي في المواقف وما معنى ان العربية كلغة وتاريخ او دم وجنس تطوّر فلسفة معينة للتنظيم الاجتماعي بل كل ما وقع في المجال التطبيقي نتيجة للعامل العربي ان هذا العامل أصبح يعني في مجال التطبيق استثناء ما يتنافى من الاشتراكية مع التقاليد السائدة في المجتمع العربي والتي لم تحن الظروف الموضوعية لتغييرها كالتزعزعات الروحية بما فيها الايمان بالله فالإطار العربي إذن لا يعطي الاشتراكية روحاً جديدة تختلف عن وضعها الفكري والعقائدي المعاش في بلاد المستعمرين وإنما يراد به التعبير عن استثناءات معينة وقد تكون موقوتة والاستثناء لا يغير جوهر القضية والمحتوى الحقيقي للشعار ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية ان يميزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية ولا ان يفسروا كيف تختلف الاشتراكية بمجرد إعطائها هذا الاطار القومي او ذاك لأن الواقع ان المضمون والجوهر لا يختلف وإنما هذه الأطر تعبر عن استثناءات قد

تختلف من شعب الى آخر تبعاً لنوعية التقاليد السائدة في تلك الشعوب .

وبالرغم من ان دعالة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالاطار العربي فلإنهم أكدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها وهي أن الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة الا على اساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين أنفسهم .

وهنا يبرز فارق كبير بين مناهج الاقتصاد الأوروبي التي ترتبط في ذهن الأمة بإنسان القارة المستعمرة مهما وضعت لها من إطارات وبين المنهج الاسلامي الذي يرتبط في ذهن الأمة بتاريخها وأمجادها الذاتية ويعبر عن أصالتها ولا يحمل اي طابع لبلاد المستعمرين فان شعور الأمة بأن الإسلام هو تعبيرها الذاتي وعنوان شخصيتها التاريخية ومفتاح أمجادها السابقة يعتبر عاملاً ضخماً جداً لإنجاح المعركة ضد التخلف وفي سبيل التنمية اذا استمد لها المنهج من الاسلام واتخذ من النظام الاسلامي اطاراً للانطلاق .

والى جانب الشعور المعقد للامة في العالم الاسلامي تجاه الاستعمار وكل المناهج المرتبطة ببلاد المستعمرين يوجد هناك تعقيد آخر يشكل صعوبة كبيرة أيضاً في طريق نجاح المناهج الحديثة للاقتصاد الأوروبي اذا طبقت في العالم الاسلامي وهو التناقض بين هذه المناهج والعقيدة الدينية التي يعيشها المسلمون . وهنا لا أريد ان أتحدث عن هذا التناقض لكي أقران بين وجهة النظر الدينية ووجهة النظر التي تتبناها تلك المناهج وأحاول أن أفضل الأولى على الثانية - أي أني لا أريد أن أبحث هذا التناقض بحثاً عقائدياً مذهبياً - وإنما أحاول إبراز هذا التناقض بين مناهج الانسان الأوروبي والعقيدة الدينية للانسان المسلم بوصفها قوة تعيش داخل العالم الاسلامي بقطع النظر عن أي تقييم لها فإن هذه القوة مهما قدرنا لها من تفكك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الاسلامي لا يزال لها أثرها الكبير في توجيه السلوك وخلق المشاعر وتحديد النظرة نحو الأشياء . وقد عرفنا قبل لحظات أن عملية التنمية الاقتصادية ليست عملية تمارسها الدولة وتتبناها وتشرع لها فحسب وإنما

هي عملية يجب ان تشترك فيها وتساهم بلون وآخر الأمة كلها . فإذا كانت الأمة تحس بتناقض بين الإطار المفروض للتنمية وبين عقيدة لا تزال تعززها وتحافظ على بعض وجهات نظرها في الحياة فسوف تحجم بدرجة تفاعلها مع تلك العقيدة عن العطاء لعملية التنمية والاندماج في إطارها المفروض .

وخلافاً لذلك لا يواجه النظام الإسلامي هذا التعقيد ولا يبنى بتناقض من ذلك القبيل بل إنه إذا وضع موضع التطبيق سوف يجد في العقيدة الدينية سنداً كبيراً له وعاملاً مساعداً على إنجاح التنمية الموضوعة في إطاره لأن أساس النظام الإسلامي أحكام الشريعة الإسلامية وهي أحكام يؤمن المسلمون عادة بقدسيته وحرمتها ووجوب تنفيذها بحقل عقيدتهم الإسلامية وإيمانهم بأن الإسلام دين نزل من السماء على خاتم النبيين (ص) .

وما من ريب في ان من أهم العوامل في نجاح المناهج التي تتخذ لتنظيم الحياة الاجتماعية احترام الناس لها وإيمانهم بحقها في التنفيذ والتطبيق .

وهب أن تجربة للتنمية الاقتصادية على أساس مناهج الاقتصاد الأوروبي استطاعت ان تقضي على العقيدة الدينية وقوتها السلبية تجاه تلك المناهج فإن هذا لا يكفي للقضاء على كل البناء العلوي الذي قام على أساس تلك العقيدة عبر تاريخ طويل امتد أكثر من أربعة عشر قرناً وساهم الى درجة كبيرة في تكوين الإطار النفسي والفكري للانسان داخل العالم الاسلامي . كما ان القضاء على العقيدة الدينية لا يعني إيجاد الأرضية الأوروبية لتلك المناهج التي نجحت على يد الانسان الأوروبي لأنها وجدت الأرضية الصالحة لها والقادرة على التفاعل معها .

فهناك في الواقع أخلاقية إسلامية تعيش بدرجة وأخرى داخل العالم الاسلامي وهناك أخلاقية الاقتصاد الأوروبي التي واكبت الحضارة الغربية الحديثة ونسجت لها روحها العامة ومهدت لنجاحها على الصعيد الاقتصادي .

والأخلاقيتان تختلفان اختلافاً جوهرياً في الاتجاه والنظرة والتقييم وبقدر ما تصلح أخلاقية الانسان الغربي الحديث لمناهج الاقتصاد الأوروبي تتعارض

أخلاقية إنسان العالم الاسلامي معها وهي أخلاقية راسخة لا يمكن استئصال جذورها بمجرد تجميع العقيدة الدينية .

والتخطيط - أي تخطيط للمعركة ضد التخلف - كما يجب ان يدخل في حسابه مقاومة الطبيعة في البلد الذي يراد التخطيط له درجة تمرداها على عمليات الانتاج كذلك يجب ان يدخل في حسابه مقاومة العنصر البشري ومدى انسجامه مع هذا المخطط او ذاك .

إن الانسان الأوروبي ينظر الى الأرض دائماً لا الى السماء وحتى المسيحية بوصفها الدين الذي آمن به هذا الانسان مئات السنين لم تستطع ان تغلب على النزعة الأرضية في الانسان الأوروبي بل بدلاً عن ان ترفع نظره الى السماء استطاع هو ان يستنزل إلهه المسيحية من السماء الى الأرض ويجسده في كائن أرضي .

وليست المحاولات العلمية للتفتيش عن نسب الإنسان في فصائل الحيوان وتفسير إنسانيته على أساس التكيف الموضوعي من الأرض والبيئة التي يعيش فيها او المحاولات العلمية لتفسير الصرح الإنساني كله على أساس القوى المنتجة التي تمثل الأرض وما فيها من إمكانيات ليست هذه المحاولات إلا كمحاولة استنزال الآلة الى الأرض ، في مدلولها النفسي ، وارتباطها الأخلاقي بتلك النظرة العميقة في نفس الإنسان الأوروبي الى الأرض وان اختلفت تلك المحاولات في أساليبها وطابعها العلمي او الأسطوري .

وهذه النظرة الى الأرض اتاحت للانسان الأوروبي ان ينشئ قيماً للمادة والثروة والتملك تنسجم مع تلك النظرة .

وقد استطاعت هذه القيم التي ترسخت عبر الزمن في الانسان الأوروبي ان تعبّر عن نفسها في مذاهب اللذة والمنفعة التي اكتسحت التفكير الفلسفي الأخلاقي في اوروبا فإن لهذه المذاهب بوصفها نتاجاً فكرياً اوروبياً سجلاً نجاحاً كبيراً على الصعيد الفكري الأوروبي لها مغزاها النفسي ودلالاتها على المزاج العام للنفس الأوروبية .

وقد لعبت هذه التقييمات الخاصة للمادة والثروة والتملك دوراً كبيراً في تفجير الطاقات المخترنة في كل فرد من الأمة ووضع أهداف لعملية التنمية تتفق مع تلك التقييمات . وهكذا سرت في كل اوصال الأمة حركة دائبة نشيطة مع مطلع الاقتصاد الأوروبي الحديث لا تعرف الملل او الإرتواء من المادة وخيراتها وتملك تلك الخيرات .

كما ان انقطاع الصلة الحقيقية للانسان الأوروبي بالله تعالى ونظرته الى الأرض بدلاً عن النظرة الى السماء انتزع من ذهنه اي فكرة حقيقية عن قيمة ربيعة من جهة أعلى او تحديدات تفرض عليه من خارج نطاق ذاته وهبأ ذلك نفسياً وفكرياً للاميان بحقه في الحرية وغمره بفيض من الشعور بالاستقلال والفردية الأمر الذي استطاعت بعد هذا أن تترجمه الى اللغة الفلسفية او تعبر عنه على الصعيد الفلسفي فلسفة كبرى في تاريخ أوروبا الحديثة وهي الوجودية اذ توجت تلك المشاعر التي غمرت الإنسان الأوروبي الحديث بالصيغة الفلسفية فوجد فيها إنسان أوروبا الحديث آماله وأحاسيسه .

وقد قامت الحرية بدور رئيسي في الاقتصاد الأوروبي وأمكن لعملية التنمية ان تستفيد من الشعور الراسخ لدى الانسان الأوروبي بالحرية والاستقلال والفردية في نجاح الاقتصاد الحر بوصفه وسيلة تتفق مع الميول الراسخة في نفوس الشعوب الأوروبية وأفكارها وحتى حينما طرح الاقتصاد الأوروبي منهجاً اشتراكياً حاول فيه ان ينطلق من الشعور بالفردية والأنانية أيضاً مع تحويلها من فردية شخص الى فردية طبقة .

وكلنا نعلم ان الشعور العميق بالحرية كان يوفر شرطاً أساسياً لكثير من النشاطات التي ساهمت في عملية التنمية وهو انعدام الشعور بالمسؤولية الأخلاقية الذي لم تكن تلك النشاطات لتتم بدونه .

والحرية نفسها كانت أداة لانفتاح الإنسان الأوروبي على مفهوم الصراع لأنها جعلت لكل إنسان أن ينطلق دون أن يحده في إنطلاقه شيء سوى وجود الشخص الآخر الذي يقف في الطرف المقابل كمحدد له فكان كل فرد يشكل

بوجوده النفي لحرية الشخص الآخر .

وهكذا نشأت فكرة الصراع في ذهن الانسان الأوروبي وقد عبرت هذه الفكرة عن نفسها على الصعيد الفلسفي كما رأينا في سائر الافكار الأساسية التي كونت مزاج الحضارة الغربية الحديثة . عبرت هذه الفكرة - فكرة الصراع - عن نفسها في الأفكار العلمية والفلسفية عن تنازع البقاء كقانون طبيعي بين الأحياء او عن حتمية الصراع الطبقي داخل المجتمع او عن الديالكتيك وتفسير الكون على أساس الأطروحة ونقيضها والمركب الناجم عن الصراع بين النقيضين . ان كل هذه الاتجاهات ذات الطابع العلمي او الفلسفي هي قبل كل شيء تعبير عن واقع نفسي عام وشعور حاد لدى إنسان الحضارة الحديثة بالصراع .

وكان للصراع أثره الكبير في توجيه الاقتصاد الأوروبي الحديث وما اكبه من عمليات التنمية سواء ما اتخذ منه الشكل الفردي وعبر عن نفسه بالتنافس المحموم وغير المحدود بين المؤسسات والمشاريع الرأسمالية الشخصية في ظل الاقتصاد الحر التي كانت تنمو وتنمي الثروة الكلية من خلال صراعاها وتنافسها على البقاء او ما اتخذ منه الشكل الطبقي وعبر عن نفسه بتجمعات ثورية تتسلم مقاليد الانتاج في البلاد وتحرك كل الطاقات لصالح التنمية الاقتصادية .

هذه هي أخلاقية الاقتصاد الأوروبي وعلى هذه الأرضية استطاع هذا الاقتصاد ان يبدأ حركته ويحقق نموه ويسجل مكاسبه الضخمة .

وهذه الأخلاقية تختلف عن الأخلاقية التي تعيشها الأمة داخل العالم الإسلامي نتيجة لتاريخها الديني فالانسان الشرقي الذي ربه رسالات السماء وعاشت في بلاده وممر بتربية دينية مديدة على يد الاسلام ينظر بطبيعته الى السماء قبل ان ينظر الى الأرض ويؤخذ بعالم الغيب قبل ان يؤخذ بالمادة والمحسوس .

وافتتانه العميق بعالم الغيب قبل عالم الشهادة هو الذي عبر عن نفسه على

المستوى الفكري في حياة المسلمين باتجاه الفكر في العالم الاسلامي الى المناحي العقلية من المعرفة البشرية دون المناحي التي ترتبط بالواقع المحسوس .

وهذه الغيبة العميقة في مزاج الانسان المسلم حددت من قوة اغراء المادة للانسان المسلم وقابليتها لاثارته الأمر الذي يتجه بالانسان في العالم الاسلامي حين يتجرد عن دوافع معنوية للتفاعل مع المادة واغرائه باستثمارها الى موقف سلبي تجاهها يتخذ شكل الزهد تارة والقناعة أخرى والكسل ثالثة .

وقد رُوّضته هذه الغيبة على الشعور برقابة غير منظورة قد تعبر في وعي المسلم التقي عن مسؤولية صريحة بين يدي الله تعالى وقد تعبر في ذهن مسلم آخر عن ضمير محدد وموجه وهي على أي حال تبعد بانسان العالم الإسلامي عن الاحساس بالحرية الشخصية والحرية الأخلاقية بالطريقة التي أحس بها الانسان الأوروبي .

ونتيجة لشعور الانسان المسلم بتحديد داخلي يقوم على أساس أخلاقي لصالح الجماعة التي يعيش ضمنها يحس بارتباط عميق بالجماعة التي ينتسب اليها وانسجام بينه وبينها بدلاً عن فكرة الصراع التي سيطرت على الفكر الأوروبي الحديث . وقد عزز فكرة الجماعة لدى الانسان المسلم الاطار العالمي لرسالة الاسلام الذي ينيط بحملة هذه الرسالة مسؤولية وجودها عالمياً وامتدادها مع الزمان والمكان فإن تفاعل إنسان العالم الاسلامي على مر التاريخ مع رسالة عالمية منفتحة على الجماعة البشرية يرسخ في نفسه الشعور بالعالمية والارتباط بالجماعة . وهذه الأخلاقية التي يعيشها إنسان العالم الاسلامي اذا لاحظناها بوصفها حقيقة ماثلة في كيان الأمة يمكن الاستفادة منها في المنهجية للاقتصاد داخل العالم الاسلامي ووضعه في إطار يواكب تلك الأخلاقية لكي تصبح قوة دفع وتحريك كما كانت أخلاقية مناهج الاقتصاد الأوروبي الحديث عاملاً كبيراً في إنجاح تلك المناهج لما بينها من انسجام .

فنظرة إنسان العالم الاسلامي الى السماء قبل الأرض يمكن ان تؤدي الى موقف سلبي تجاه الأرض وما في الأرض من ثروات وخيرات يتمثل في الزهد